مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة بتيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.333/325

الهوية والمنعرج البيني قراءة سيميو ثقافية في حدود التنوع والهجنة وإشكالية الهوية الما بعدية

The interplay of identity: A cultural simo reading within the limits of diversity, hybridity, and the problem of post-identity

عبد الجبار ربيعي
abdeldjabar@univ-tebessa.dz
جامعة العربي التبسي تبسة.
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2021/06/27 تاريخ القبول:2020/08/30 تاريخ النشر:2022/12/02

ملخص: تهدف هذه الورقة البحثية إلى عرض إشكالية تيمتي التنوّع والهجنة ضمن مقولة التعددية الثقافية، وفحص المحمول الثقافي بما هو صعود لجدل المفارقات الكبرى بين الكونية والخصوصية، والعالمية والمحلية.

ويتوخى البحث بذلك الوصول إلى جملة من النتائج تدور حول تأويل الهوية من وجهة نظر سيمياء الثقافة بوصفها علامة كبرى متضمنة نظاما من العلامات الصغرى المتمظهرة في شبكة من العلاقات والأبنية القائمة من تعبيرات وأشكال ورموز، والمفارقة بين مقولتيّ التنوّع والهجنة ما بعد الحداثيتيْن وتمفصلات الهوية في سياق تحوّلات الهوية التقليدية المتأسسة على مبدأ الحدود والهوية ما بعد الحداثية القائمة على التداخل والتشابك.

كلمات مفتاحية: الهوية؛ التنوّع؛ الهجنة؛ سيمياء الثقافة؛ العولمة.

Abstract:

This research paper presents the problematic of diversity and hybridity with in the statement of cultural pluralism, and examines the cultur alimplication of the controversy of the major paradoxes between universal is mand privacy, globalization and location.

Itaims to show the interpretation of identity from the point of view of the semiotics of cultureas a major sign that in cludes a system of minor signs appearing in existing structures of expressions, form sand signs. It wants to show also the contrast between the statements of post modern diversity and hybridity and the articulations of identity in the context of traditional identity transformations based on the principle of limit sand postmodern identity based on over lapping and intertwining.

Keywords: *Identity: Diversity; Hybridization; Semiotics of CultureGlobalisation.*

1. مقدّمة:

تعد مشكلة الهوية -بكل صورها وتفريعاتها- من أعقد وأكثف القضايا البحثية ذات الطابع الجدلي، فقد ارتبط البحث في مسألة الهوية بالتحولات المعرفية والفلسفية، ومعضلات السياق الثقافي، والتغير في مسالك نظرية المعرفة؛ من حيث المنطلقات التأسيسية للمكوّن الهوياتي، وحدود الهوية بوصفها تعبيرا عن مجتمع ما في امتداده التاريخي وراهنه المعيش.

وتهدف هذه المحاولة القرائية إلى مقاربة حضور مفهوم الهوية في الطروحات ما بعد الحداثية من خلال تحليل مقولتيْ: التنوع والهجنة؛ كونهما تعبيرا عن هذا الخطاب، وبحث صلتهما بالعولمة وتفكيك المنطق الهوياتي الأصلي للثقافات المحلية، ومن ثم دخولها في وضع التعارض المبدئي.

وتحاول هذه القراءة أن تقرأ النماذج الهوياتية من خلال آليات سيمياء الثقافة بوصفها اتجاها يركز على قضية النمذجة بشكل أساسي، والغرض من ذلك هو الكشف عن حيز التداخل والتباين في مفهوم الهوية انطلاقا من اختلاف المرجعيات والسياقات المساهمة في تحديده.

2. في سيمياء الثقافة:

يطرح موضوع فلسفة المعنى ومعضلة الدلالة في المناهج والاتجاهات النقدية الحداثية وما بعد الحداثية جملة من الإشكاليات من أهمّها: إشكالية آلية استقبال وإنتاج الدلالة وحركة المدلولات في التصوّرات والافتراضات النظرية لهذه الاتجاهات المتباينة، وهنا تطرح السيميائيات موضوع التأويل من حيث هو متّصل أصالة بالمؤوّل الذي هو الإنسان، وذلك أنها لا تتعامل مع مادة النص إلا من وجهة نظر النشاط الإنساني، و«يمكن القول إن المعنى ليس محايثا للشيء وليس منبثقا من مادته، إنه وليد ما تضيفه الممارسة الإنسانية إلى ما يشكل المظهر كما لا يحيل على أي شيء آخر سوى ذاته»[1] ومادام المعنى على هذا القدر من إمكان السيرورة والانزلاق نحو الفجوات والتوترات ضمن سلسلة العمليات التأويلية؛ فإنه في البداية يحسن القول إن الأعراف الأحدث للسيميائيات على الرغم من الخلفيات البنوية لبعض توجهاتها تدعو إلى توليد نماذج تأويلية ترتبط هي الأخرى بالتعددية والتنوّع في مستويات الخطاب التي تشكّلت في إطار الإبدالات والتغيّرات الما بعدية.

إن هذه القراءة تتوسّل بسيمياء الثقافة بوصفها توجّها واشتغالا يجمع بين اعتباريّن اثنيْن هما: تفسير العلامات في إطار النظم الثقافية الدالة، والبحث عن أصول العلاقات بين الأنماط والأجناس العلامية المختلفة، ومن هنا –وعلى هذا المنوال القاعدي- تتّخذ سيمياء الثقافة بعدا إجرائيا وايديولوجيا في الوقت نفسه، مع كونها تقدّم موضوع الثقافة -في سياق نمذجتها ومفهمتها[2] للعالم المتصوّر- بوصفه مرتكزا نظريا لا مجرّد معطى جانبي «والثقافة بالنسبة إلى هذه المدرسة هي، في مفهومها السيميائي الواسع، نظام من العلاقات بين العالم والإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا (Socium)، هذا النظام ينظم سلوك الإنسان من ناحية، ويحدد الطريقة التي يهيكل بها العالم من ناحية أخرى، وبما أن نظم العلاقات بين العالم والإنسان تختلف من ثقافة إلى أخرى، فهذا يعني أن العلامات التي تأتينا من العالم لا ينظر إليها ولا تتمّن بالطريقة نفسها في الثقافات المختلفة»[3] فالاختلاف بين أنظمة العلامات يفسّر في سياق الاختلاف بين الأنظمة الثقافية؛ بما يجعل من الثقافة خطابا مرجعيا لعمليتيْ الإنتاج والاستقبال، وهو ما يعني أن المعطيات النظرية تحلينا على ضرورة البحث عن مسار موحّد يمكّننا من فهم العلاقة بين الهوية والثقافة، والموازنة بين مقولتيْ الاختلاف والهجنة وذلك بتأويل الثقافة على أنها علامة رمزية تمثّل بؤرة التشكّل العلامي للهوية في شتى مستوياتها وعلاقاتها الداخلية والخارجية.

1.2. المهاد المعرفي:

تعد سيمياء الثقافة اتجاها حديثا عند عدد معتبر من الباحثين الروس والإيطاليين بشكل خاص؛ وهو منحى تبلور في إطار التفرّعات المتكاثرة للسيميائيات و«يمثل أنصار هذا الاتجاه المستفيد من الفلسفة الماركسية، ومن فلسفة الأشكال الرمزية لـ(كاسيرر"Ernst Cassirer ")، عدد من العلماء والباحثين السوفيات الذين تطلق عليهم تسمية (جماعة موسكو-تارتو)، وهم (يوري لوتمان "Yori Lotman") وفياتشلاف.ف.ايفانوف"Vyacheslav Ivanov" ، وبوريس أوسبنسكي"Boris Uspenskij"، وفلاديمير توبوروفVladimir" Nikolayevich Toporov"، وألكساندر.م. بياتيجورسكيAlexander Piatigorsky"، وكذلك الإيطاليين(روسي ولاندي)»[4] ويبدو هذا الاتجاه محاولة لإدراج بعض المفاهيم البنوية داخل حقل التطبيقات السيميائية مضافة إلى التأسيسات الماركسية المتعلّقة خاصة بتناول البنيات الثقافية، والاحتفاء بنظام العلاقات في دلالاته الرمزية على الأبعاد الاجتماعية والوظائف العضوية لإنتاج المعنى السيميائي، ولذلك فإن هذا الاتجاه «لا يؤمن باستقلال النظام الواحد عن الأنظمة الأخرى، بل يبحث عن العلاقات التي تربط بينها، سواء كان ذلك داخل ثقافة واحدة (علاقة الأدب بالبنيات الثقافية الأخرى مثل الدين، والاقتصاد، والأشكال التحتية-....) أو يحاولون الكشف عن العلاقات التي تربط بين تجليات الثقافة الواحدة، عبر

تطورها الزمني، أو بين الثقافات المختلفة، أو بين الثقافة واللاثقافة»[5] ويقدّم منظرو سيمياء الثقافة مجموعة من المفاهيم من أجل حصر الجهد النظري، وتحديد عمليات التحليل ضمن نسق الاقتراب من الصور الرمزية داخل نظام الثقافة، ومن هذه المفاهيم مفهوم النمذجة، ومفهوم الأنظمة المنذجة ونحوها من الاجتراحات الهادفة إلى تأسيس أدوات إجرائية تتحدّد من خلالها مسارات التناول السيميائي «وقد أصبحت هذه المفهومات أسسا محورية في الدراسات السيميائية السوفياتية كلها، فتوصف الأنظمة السيميائية بأنها أنظمة منمذجة للعالم، أي أنها تضع عناصر العالم الخارجي في شكل تصور ذهني هو نسق، أو نموذج»[6] وليس غريبا أن تعدّ فكرة النمذجة ذات أصل بنوي، إلا أن البعد العلائقي بين العلامات والانفتاح على الأنساق والعوالم المجاورة للغة الطبيعية كما في الطرح السيميوطيقي الشامل يمنح سيمياء الثقافة كثافة متفرّدة بمقاربتها لعناصر ألصق بالثقافة من حيث هي نتاج للممارسة الإنسانية المتنوّعة، وفضاء لأشكال متعدّدة من التعبير التواصلي «وأهم هذه العناصر النص، الصورة، الإشهار ومختلف الفنون الأخرى»[7] وهنا يمكن لهذه القراءة أن تستوعب مفهوم وتمثيلات الثقافة، ومن ثم الهوية عبر تلك الصور والنماذج الرمزية التي تحل فيها الثقافة، وفي ظلّها ترتسم الحدود الدنيا والعليا للعمليات التأويلية.

2.2. حدود المقاربة المنهجية:

تأسيسا على ما سبق تطمح هذه القراءة إلى الوقوف على ملامح ما يظهر أنه مفارقة نظرية بين التنوّع والهجنة؛ بوصفهما مقولتيْن ما بعد حداثيتيْن ترتبطان بالدراسات الثقافية وما بعد الكولونيالية بصورة بارزة، وقد كانت مقولة الاختلاف بموقفها العام من الصرح الحداثي؛ ودعوتها إلى تفكيك سردياته الكبرى مؤذنة بانبجاس منظومة من المصطلحات الخاصة التي أثّثت ورافقت التحوّلات في المجتمعات والأفكار الغربية، فمنطلقات فلسفة الأنوار التي مثّلت المرجع الفلسفي، والمعرفي والتاريخي للحداثة الغربية؛ وبالقدر الذي أسّست فيه للإنسانوية بطروحاتها العلموية المعروفة؛ فإنها جسّدت بؤرة التمركز الغربي حول المفاهيم الأصول التي شكّلت تاريخه الحضاري، وتاريخ حركته التحديثية؛ ومنها مفاهيم: الثقافة والحضارة والفلسفة والهوية والتاريخ..، هذه المفاهيم التي ستعاد صياغتها مع الظاهرة ما بعد الحداثية؛ وستحظى مفاهيم لها صلة وثيقة بالاختلاف والتفاوض الثقافي مثل التنوّع والهجنة والثقافة والهوية بتناول أساسي في الدراسات الثقافية وما بعد الكولونيالية، كما في أعمال فرانز فانون، وإدوارد سعيد وغيرهما.

لكن أطروحة التعددية الثقافية -على ما فيها من تجاوز لمركزيات الحداثة- لم تخل من شبهات منهجية في تمركز جديد حول قيم ثقافية معولمة، أفضت إلى محو للذاكرة والتاريخ الثقافي للشعوب.

4.الهوية علامة مترنّحة بين الذاتية والجماعية:

كيف يمكن أن نحدّد مفهوم الهوية في سياق ثنائية: الخصوصية/الكونية؟ وهل يجدر بنا القول إن هذا المفهوم ذاته تقلّب بتقلّب التحوّلات في مسار التحديث الغربي؟

على مستوى الاعتبار السردي للهوية، وهو جزء من المنحى الثقافي العام، تتفصل الهوية من حيث هي عبارة الأنا وتمثيلها، و«يتعارض مفهوم الهوية مع مفهوم الغيرية وتستعمل الهوية للإشارة إلى المبدأ العام، الذي يسمح للفرد بأن يبقى (هو هو) وأن (يستمر في كائنه) عبر وجوده السردي، على الرغم من التغيرات التي يسببها أو يعانيها ونقصد بـ(اكتشاف الهوية) مظهرا من مظاهر التأويل عند قارئ التعبير حين يقارن بين عالم الخطاب، أو جزء من هذا العالم، وعالمه الخاص، (مثال: القارئ الذي يجد هويته في بطل الرواية)»[8] ويظهر من هذا المفهوم أن الهوية تأتي بمثابة مبدأ في تمثّل عملية الوعي بالعمل السردي، ولكنها-وبحكم الخيال السردي وتأثيرات الحبكة والخط الزمني والنسيج القصصي للأحداث- تنفلت لتكون جزءا من هذا العالم المنفصل ابتداء عن الذات؛ حيث يحدث نوع من التماثل بين الذات متحققة في القارئ، والموضوع متمثّلا في شخصية العمل الروائي وهي بؤرة الخطاب السردي ومحموله، ومع هذا التقمص أو التغييرات التي تنتج عن (اكتشاف الهوية) إلا أن الهوية بما هي معارضة للغيرية تظل حدّا فاصلا للكينونة ومدخلا إليها.

ويمكننا أن نلاحظ على هذا المفهوم للهوية، وغيره من المفاهيم المتناثرة في ثنايا حقول المعرفة المتعدّدة أن الأصل الفلسفي كامن فيها «وذلك من جهة كونها مسألة لئن صنّفت عادة بوصفها ظاهرة تاريخية، أو ثقافية، أو أنثروبولوجية نوعية، أو عينة نفسية تكشف عن مدى انحسار مساحة الوعي لدينا، أو مشكلا سيميولوجيا يبين، كما تقول جوليا كرستيفا "Julia Kristeva "، "أن كل نظرية لغوية هي تابعة لتصور معين عن الذات"، فهي في أصلها مسألة فلسفية قديمة لا مشاحة فيها، ليس فقط من أجل أن فلاسفتنا القدامى قد استعملوا لفظة "هوية" (المنحوتة من

الضمير "هو" بوصفه مقابلا للفظة إستين(ἐστίν) في اليوناني للدلالة على وجوه المعنى الذي أقره أرسطو لمفهوم الوجود»[9] بل لأن الفلسفة الحديثة-كما يرى فتحي المسكيني- لم تزد على أنها نقلت المفهوم من منعطف الوجود إلى منعطف الذات، وذلك تأسيسا على الكوجيتو الديكارتي؛ الذي سيصبح علامة مركزية على تاريخ تحديث العقل الغربي، والانتقال من إشكاليات فلسفية لاهوتية في طابعها الدوغمائي الوثوقي إلى موقف فلسفي أعاد الاعتبار للذات، وقيمة الذاتية التي فسّرت وفسّرتها قيم أخرى مرافقة كالعقلانية والحرية، فـ«ما وقع مع الفلسفة الحديثة هو إذن الانزياح من "الهوية" (الوجود) إلى الذات، أو الأنا أفكر، وذلك بجعل معنى "الهوية" -الوجود نفسه مستنبطا من واقعة "الأنا" أفكر»[10] وبذلك نستطيع أن ندرك من هذا الإيراد –وفق هذا المنظور- أن هذا المفهوم الفلسفي للهوية مرتبط بفلسفات الداخل أو الذات المعارضة لفلسفات الخارج أو الموضوع مثل الكلاسيكيات الماركسية أو الشيوعية، أو حتى الفلسفة الوضعية والتي تشتق مفاهيمها من حقلي الفلسفة وعلم الاجتماع بشكل خاص.

ويرى مُحَمَّد عمارة أن الهوية ذات أصل جماعي؛ فهي تعبير عن مشتركات الأمة، ومقومات بنائها الحضاري والتاريخي، وهي في حدها الأدنى مقدمات من الثوابت التي تميّزها من غيرها «فإن هوية الشيء هي ثوابته، التي "تتجدد" ولا "تتغير"..تتجلى وتفصح عن ذاتها، دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة..إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان، يتميز بها عن غيره»[11] وفي الجملة يقسّم بعض الباحثين الهوية إلى قسمين: يصطلح على القسم الأول الهويات الجماعاتية وهي هويات أكثر اتصالا وتعبيرا عن المجتمعات التقليدية-بحسب هذا المنظور- و«وفق هذا التصور، لكل فرد انتماء يعتبر رئيسيا، بوصفه عضوا في "جماعته"...وسواء تعلق الأمر بـ"ثقافات" أو بـ"أمم" أو بـ"إثنيات" أو بـ"اتحادات، تعتبر السلطات والأشخاص أنفسهم مجموعات الانتماء هذه مصادر "جوهرية" للهوية»[12] أما القسم الثاني فهو ما يطلق عليه الهويات التطويعية وهي نوع من الهويات المرتبطة بالتحولات المجتمعية والصناعية والفكرية الشاملة في المجتمعات الحديثة، و«وفق هذا التصوّر يمتلك كل شخص انتماءات عديدة يمكن أن تتغير أثناء حياته. ترتبط هذه الأشكال بمعتقدات مختلفة عن السابقة، ولاسيما تلك المرتبطة بأولوية الفرد على الانتماءات الجماعية وأولوية المماثلات "للذات" على الممثلات "للغير"»[13] وعلى ذلك فمنطق الهوية إما أن يكون جماعيا بأشكاله المتعددة كالديني أو الوطني أو العرقي أو أن يكون ذاتيا بانتماءاته الهرمنيوطيقية أو الما بعدية عموما، ومن مصادره الكثيرة كعلم النفس أو علم الاجتماع أو الفلسفة...إلخ، وعلى نحو متصل بالهوية، قد يشير مصطلح الثقافة إلى ما تتحدّد به الهوية خاصة في مستواها الجماعي المشترك، و«تتألف الثقافة من أنماط فكرية وقيم ومعتقدات شائعة بين مجموعة من الأفراد، لا يهم حجم المجموعة هنا، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، وسواء أكانت جزءا من "مجتمع" معين أم المجتمع بأكمله، أم حتى إذا كانت المجموعة مرتبطة بمجموعات أخرى خارج حدودها الوطنية. فالثقافة هنا جزء لا يتجزأ من الحياة الكلية لمجموعة معينة من الأفراد»[14] على معنى أن الثقافة أشبه بالحلقات المتداخلة التي يندرج بعض في بعض، والفرد قد ينتمي إلى عدة ثقافات في الوقت نفسه، وبالجملة قد لا تتعارض هذه الثقافات بسبب المسارات المتعددة لها، وهي بذلك تتقاطع مع مفهوم الهوية الذي تجتمع فيه هويات جزئية بالهوية الكلية أو لنقل الأساسية أو الماهوية؛ وهي من اختيار الشخص الهووي الذي يعيش حالة متوازنة أو متصالحة بين المساواة والترجيح.

5.الهوية والمنعرج البيني:

بعد الانتكاسات الفلسفية والعلمية والواقعية التي جرّتها الحداثة على الفكر والحياة الغربية وعلى الشعوب الآخرية، دفعت ما بعد الحداثة نحو تقويض الصرح الحداثي، وتفكيك فلسفاته ومناهجه واستراتيجياته وأصوله النظرية، وصاحب ذلك تفكيك الكثير من المفاهيم والمقولات الحداثية ومنها مفهوم الهوية ورديفه مفهوم الثقافة، بناء على نقض مفاهيم التمركز والحقيقة وثبات المعنى وجوهريته، بما أن ما بعد الحداثة احتضنت مقولات اللامعنى والنسبية واللاعقلنة فإنها ركزت على ما هو وظيفي وبراغماتي في تناولها لمفاهيم مثل الثقافة، فـ«إطلاق صفة "الثقافي" على موضوع ما يعتمد على الامتداد الزمني لدوامه. فسمته الدائمة يقابلها جانبه الوظيفي، وذلك الجانب هو ما يخفيه من عالم الظواهر عبر الاستهلاك والتلف والإهلاك»[15] وبذلك سيؤول مفهوما الثقافة والهوية المتلازمان إلى فعل الحركة والسيرورة والزمنية التي تقطع جميعها مع الثبات والاتزان والقولبة والنهائية «إن الثقافة بهذا المفهوم تختلف تمام الاختلاف عن الرأي الشائع الذي ساد الأدبيات الأكاديمية حتى وقت قريب. فالرأي الشائع يضع الثقافة ضمن التطبيقات التي تحافظ على الإنتاج

المتواصل الرتيب للواقع الاجتماعي (هويته العينية)، تطبيقات تستهدف حماية التماثل واستمراره عبر الزمن. فقد ظلت فكرة الثقافة الشائعة في كتابات العلوم الاجتماعية تشير إلى آلية تحقق الاتزان والاستقرار والروتين والتكرار، أي أداة للثبات، لا ثوران يمنع الواقع الاجتماعي من السكون ويجبره على التجاوز الذاتي الدائم كما يظن تيودور أدورنو "Theodor W Adorno" وحنة أرندت"Hannah Arendt " »[16] وجميع ذلك مردّه إلى مسألة التعددية في مستوياتها الثقافية بجميع تعبيرات الثقافة وتنوّعاتها، والفردية بعدد الأفراد الذين يحملون هوياتهم الخاصة، والأفراد-هنا- ثقافيون وغير ثقافيين والهويات وثوقية أو وثائقية، والاختلاف هو الحاضن لهذه الفسيفساء «فقد أكد فرنسوا لاريوال مثلا(François Laruelle) أن التفكير المعاصر بما في ذلك العلوم المختلفة هو تفكير في الاختلاف والكثرة والتنوع، لذلك يجب أن تكلم في الهوية بصفة الجمع ونقول هويات حتى نزيح عن هذا المفهوم كل تقوقع في الذات وكل انكماش في الوحدة. مزية هذه المقاربة التنوعية أنها تحرر الهوية من صبغتها الكلية التوحيدية التي تقوم على إقصاء الآخر، كما يمكنها أن تحررها من بوتقة الخبايا الإيديولوجية والمواقف المسبقة في المقاربات الأنثروبولوجية»[17] وكما يرى –هنا- فتحي التريكي فإن الهوية والثقافة لابد ألا يكونا ذريعة لإقصاء الآخر تحت طائلة فرض منطق كلي وأحادي للهوية، فالتعدد داخل ما يفترض النسق الواحد هو أساس التفكير المعاصر، وهو ما يجعلها إيمانا وممارسة واقعية بدل أن تكونا صورة عن مثالية إيديولوجية.

6.هل تحفظ الهجنة التنوّع: مسائلة منهجية وأخلاقية:

لقد أوصلتنا المقاربة السيميو ثقافية حتى الآن إلى استخلاص أنموذجيْن ذهنييْن عن الهوية: يعبر الأول عن هوية مشتركة جماعية تتصف بالثبات النوعي، ويعبر الثاني عن هوية زمنية متحركة ذات طابع فردي هي هوية ما بعد حداثية ترتبط بالتنوّع والاختلاف الذي يحفظ للفرد تفرّده، كما يقوم على أساس التأثيرات التاريخية في سيرورة الفعل الإنساني.

ويأتي السؤال هنا: هل يفضي التنوّع إلى الهجنة؟ أو بعبارة أكثر استرسالا: كيف يفضي التنوّع إلى الهجنة؟

على مستوى النصوص الأدبية، فيمكن الإشارة إلى التهجين على أنه «حالة من ضياع المعنى الصافي في النصوص، إن تلاقح النصوص يخلق نصوصا جديدة تجسد فكرة أن الإنسان متعدد الأبعاد والأوجه»[18] ومن الواضح أن التهجين يضعنا أمام نص مفتوح أو لانهائي الاحتمالات أو مطمس الملامح، نص متعدد ومتشتت في الوقت، نص ما بعد حداثي خال من المؤلف المباشر والحقيقة الثابتة والمعنى المتوقع عادة في النص؛ بمعنى أن الهجنة ألغت الوجود المتعيّن للنصوص، وكذلك فعلت مع الأجناس والأنواع الأدبية.

أما على مستوى الخطاب الفلسفي والمعرفي، فيرى المفكر ما بعد الكولونيالي البارز هومي بابا "Bhabha, Homi K" أن «مصطلحات التشابك الثقافي، سواء كان هذا التشابك تناحريا أو اندماجيا، هي مصطلحات تنتج أدائيا. فلا ينبغي التسرع في قراءة تمثيل الاختلاف على أنه انعكاس لخصائص إثنية أو ثقافية كمتعينة مسبقا ومدونة في لوح التراث المحفوظ. والإفصاح الاجتماعي عن الاختلاف هو-من المنظور الأقلّوي- تفاوض معقد ومتواصل يسعى إلى إقرار ضروب الهجنة الثقافية التي تبزغ في لحظات التحول التاريخي»[19] فليس الاختلاف وفق رؤية هومي بابا مدخلا للمفاصلة والقطيعة الحدّية بين مختلف الجماعات أو الحالات التي يمكن أن تؤسس لوجود الاختلاف وتدفع إليه، بل هو على العكس من ذلك مدعاة إلى إقرار الهجنة الثقافية وتحقيقها «وحق التدليل من هامش القوة والامتياز المقرّرين لا يتوقف على استمرار التراث، وانما يلوذ بقوة هذا الأخير كما يعاد نقشه في الشروط العارضة والمتناقضة التي تكتنف حيوات أولئك الذين هم من الأقلية. والتقدير والاحترام الذي يمنحه التراث إنما هو شكل جزئي من أشكال تعيين الهوية. فهو إذ يعيد إخراج الماضي على مسرح الحاضر إنما يدخل إلى ابتداع التراث زمنيات ثقافية أخرى مباينة ومغايرة. وهذه سيرورة تحول دون أي نفاذ مباشر إلى هوية أصلية أو تراث قار»[20] فالتراث لا يمكن أن يكون دليلا ولا قاعدة للثبات الذي تصير به الهوية محسومة، وغير داخلة في نسق السيرورة الزمنية، فلا يستطيع الماضي الذي هو التراث أي ما يفترض أن يكون أصلا للهوية إلا أن جزءا من هوية تفاوضية مترنحة دائمة التحوّل طافية فوق بحر الهجنة المتلاطم.

ومن هذا الاعتبار السالف يطرح الباحثون ما بعد الحداثيين فكرة المثقف الهجين الذي يقف على تخوم الهويات المتعارضة، إذ «اعتبر توينبي "Arnold J. Toynbee" الإنتلجنسيا بمثابة طبقة أو شريحة من الوسطاء الثقافيين، أو بعبارة أكثر تحديدا ما بين حضارتين»[21] وإذا استطعنا أن نفهم وساطة المثقفين هذه على أنها نقل ما هو

محلي للغير، ونقل ما لدى الغير للثقافات المحلية؛ فإننا لا نستطيع أن نسلم بأن هؤلاء المثقفين على موقف فكري وثقافي واحد، إلا إذا ذهبنا مباشرة للحديث عن ما يسمى بالمثقف الهجين فـ«مع العولمة الثقافية سنة 1990 تضاعفت الأفكار الهجينة كما تضاعفت صور المثقف المنفي. لقد أصبح المثقف الهجين والمنفي شكلا جديدا، ولكنه شكل سائد الآن. إنه المثقف "الطبيعي". يكفي أن نشير إلى أسماء نذكر منها: سلمان رشدي، ف.س.نايبول "Vidiadhar Surajprasad Naipaul" ، ب.بريتنباخ "Breyten Breytenbach" ، و.سونيكا "Wole Soyinka" ، ر.بوجدرة، أمين معلوف، دوريس لسنغ "doris Lessing" ، كاتب ياسين، طاهر بن جلون، أمير كوستيرستا "Emir Kusturica" ، وغيرهم. وبمعزل عن الحدود التي لا يمكن تجاوزها والتي يبدو أنها حددت المعالم بين الشرق والغرب(أو ربما لاكتشاف هذه المعالم) يعتبر إدوار سعيد النموذج الأمثل للكاتب الخلاسي أو الهجين»[22] ويبدو من هذا الإحصاء الجزئي لرموز ثقافية توصف بالهجنة أننا بصدد الحديث عن مثقف تتنازعه هويتان كبريان دون الإشارة إلى الهويات الجزئية الأخرى الأقل تأثيرا أو بروزا، فمثقفان من أمثال ر. بوجدرة وكاتب ياسين هما من أصول محلية جزائرية ذات مصادر تاريخية وحضارية عربية وإسلامية، ولكنهما مؤدجلان بإيديولوجيا غربية أو فرانكوفونية بشكل أكثر تحديدا، وكذلك إدوارد سعيد بثقافته الأمريكية وأصوله الفلسطينية العربية، ولنلاحظ معا كيف أن العولمة الثقافية والمثقف الهجين مترافقان، غير أن اللافت هنا أيضا هو التعبير بالمنفى عن المثقف الهجين وهو وصف لحالة الاغتراب التي يعيشها داخل ثقافته فيظهر أن الهجنة في هذا الطرح ليست سوى تحيّز للنطاق الغربي، على الرغم من محاولات التعمية بقضايا كالانفتاح والاختلاف والتنوع وغياب المعنى، فهل يمكن أن يكون غياب المعنى نفسه إعادة إنتاج للمعنى الغربي أو للغرب كمعنى؟

ذلك على الأرجح هو ما أدركه مثقفون غربيون من أمثال: أرمان ماتلار "Armand Mattelart" الذي يقول: «فكر هجين، منطقيات خلاسية، تهجين، توليد: لقد اغتنت لغة التمازجات بين الثقافات في العقدين الأخيرين....ولعبت فيها الدراسات ما بعد الكولونيالية دورا كبيرا...فهذه المفاهيم بعيدة عن الإجماع حولها، إذ يرى البعض في السجل الدلالي للهجانة حصان طروادة لإيديولوجيا استعمارية جديدة»[23] فالهجنة وبقدر ما هي محو للهوية ومحو لتاريخ الثقافات، فإنها تمرير للمشروع الغربي، بل كما يرى ماتلار هي سلاح فكري مبطّن من أسلحة الكولونيالية، ومن اللافت أيضا أن الهجنة والتنوّع مصطلحان أو حالتان لا يمكن أن تجتمعا بالأوصاف السابقة؛ لأن الهجنة تقضي على التنوّع أو على أي وجود متعيّن أو نقي، وفي سياق إشكالية التحيز هذه يشير عبد الوهاب المسيري إلى تأثير الوعي الثقافي والتاريخي الغربي في تغليف مصطلحات أداتية وتحليلية مثل الموضوعية، وفي كيفية تقييم مسارات الشعوب الغيرية فـ«العلوم الإنسانية في الغرب تصدر عن فكرة أن ثمة قانونا عاما للتاريخ وللتطور السياسي والاقتصادي ينطبق على كل الشعوب، في كل زمان ومكان، وأن السمات الخاصة للظاهرة سمات عرضية، يجب استبعادها في الدراسة العلمية الموضوعية المحايدة، ومن ثم يجب أن تنصب الدراسة على اكتشاف القوانين العامة. ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن هذا القانون العام هو في واقع الأمر قانون غربي وحسب. فمعظم الصياغات النظرية للعلوم الإنسانية في الغرب تستند-كما هو طبيعي ومتوقع- إلى تجربة الإنسان الغربي ومعرفته بتاريخه ومجتمعه»[24] ويرى المسيري أن وجهة النظر المتحيّزة أفضت إلى تصوّر واحد متولّد عن البيئة الغربية ونمط التفكير السائر في الأنموذج المادي العام في الحضارة الغربية، وهذا التصوّر هو الذي أسس لانحصار المقولات والمفاهيم المعرفية والفلسفية في قالب أو براديغم معرفي شبه موحد، ولعل ذلك ما يمكن أن يفسّر لنا العلاقة السابقة بين العولمة الثقافية والهجنة، ويقرر المسيري بعد ذلك أن هذا المنهج أدى «إلى تعريف الإنسان باعتباره الإنسان الطبيعي بمعنى أنه إنسان يتسم بسمات عامة "أضيفت" إليها الحضارة، أي أنها ليست أصيلة فيه. وبذلك تتحول الهوية إلى مسألة مضافة آليا، وهكذا يصبح المشروع الإنساني من الاستنارة هو العودة إلى الإنسان الطبيعي، وهذه الفكرة عبرت عن نفسها في فكر العولمة، ففكر العولمة هو في جوهره العودة إلى هذا الإنسان الطبيعي الذي لا يعرف الحدود أو الهوية وليس عنده أي إدراك أو اكتراث بالقيم الأخلاقية والمعنوية مثل الكرامة والارتباط بالأرض والوطن والتضحية»[25] وهذا ما يفسر التركيز على الهويات الفردية، وعلى زمنية الهوية وهجنتها، بالقدر الذي جعل من التنوّع مجرد أداة خادمة لفكرة التهجين، لا مطلبا حقيقيا، ومن الجلي أن الهجنة واختفاء الهوية النقية، بل وتدمير منطق الهوية نفسه عودة أخرى لمعادة القيم والإنسانية التي نحن مطالبون بالهجرة إليها على حد

تعبير المفكر التونسي فتحي المسكيني «إن الوعد الوحيد لدولة المستقبل هو شكل الحياة. وأي تفاوض أخلاقي مع دولة المستقبل لا رهان له سوى الإنسانية»[26].

فالإنسانية هي رغبة داخلية واعية قبل أن تكون منزعا فلسفيا أو مصطلحا إجرائيا مراوغا.

7. خاتمة:

لقد كشفت هذه القراءة السيميو ثقافية عن أنموذج ذهني متردد ومتستر لنسق الهجنة الذي لا يظهر إلا في صورة المفاهيم المجاورة وفي مقدمتها مفهوم التنوّع؛ والذي يعد تمريرا مضمرا لخطاب العولمة والقطع مع الهويات الحضارية.

وتوصلّت هذه الدراسة بالتالي إلى عدد من النتائج على النحو الآتي:

1. تعد سيمياء الثقافة توجّها معرفيا متشبّعا بالفلسفة الماركسية ومستفيدا من البنوية خاصة في مستوى فكرة الأنموذج، ومنفتحا على الممارسة التأويلية في قراءة الرموز الثقافية من منظور علامي للكون.
2. يتعدد التنظير الفلسفي والمعرفي لمسألة الهوية من وجهتي نظر تقليدية ثم حداثية وما بعد حداثية، من خلال مساحة عامليْ الثبات والتغير، والمقومات الأصول لخطاب الهوية نفسه كخطاب يرواح بين الهوية الثابتة والمتحركة.
3. يقدم منظرو الثقافة مرجعين مفهومييْن أساسيين للثقافة من منطلق الهوية التطويعية والهوية الجماعية؛ بحيث تتعارض الأطر النظرية للأنموذجيْن التصورييْن للهوية تأسيسا على المعطى.
4. يمثل التعارض بين مقولتيْ التنوّع والهجنة ما بعد الحداثيتيْن جدلا إشكاليا من حيث وجود أنموذج سيميائي ثقافي لهوية عولمية ما بعد حداثية تهدد الذاكرة والتاريخ الثقافي، ومقولة الاختلاف الأساسية نظريا فيما بعد الحداثة.
5. يطرح عدد من المفكرين العرب وفي مقدمتهم عبد الوهاب المسيري فكرة جوهرية فيما يتعلق بالتحيز الثقافي للمنهج والنسق المعرفي الغربي الذي يفضي إلى تذويب الهويات الآخرية بحجة العولمة والهجنة التي هي مقولة مشاكسة ومماثلة للأنموذج الثقافي الغربي في نهاية المطاف.

8. الهوامش:.

[1] سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط3، (اللاذقية/سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2012)، ص224.

[2] المفهمة تعني في الفلسفة بناء المفاهيم، وتشير إلى "استخلاص المصورات الذهنية المفارقة للدلالة العينية لترتقي بها للتجريد الكلي، وشاع هذا الاستعمال في المغرب العربي على نسق مصطلحات مثل العولمة والعصرنة"، ينظر: عبد السلام المسدي، مصطلحاتنا بين المشرق والمغرب، جريدة الرياض، المملكة العربية السعودية، الخميس: 28 صفر 1426هـ/07 أفريل 2005، العدد:13436. كما يرتبط مصطلح المفهمة في مستويات أخرى بحقول مثل الدراسات التاريخية والمعجمية.

[3] عبد القادر بوزيدة، يوري لوتمان مدرسة "تارتو-موسكو" وسيميائية الثقافة والنظم الدالة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد: 35، العدد:3 "السيميائيات، يناير مارس 2007، ص186.

[4] عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط2، (الدار البيضاء/المغرب، بيروت/لبنان: المركز الثقافي العربي، 1996)، ص106.

[5] المرجع نفسه، ص108.

[6] المرجع نفسه، ص107.

[7] فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر/ لبنان: منشورات الاختلاف، 1431هـ/2010م)، ص101.

[8] سعيد، علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، ط1، (بيروت/لبنان، سوشبريس، الدار البيضاء/المغرب، دار الكتاب اللبناني، 1405هـ/1985مـ)، ص225.

[9] فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة النحن، دار الطليعة، ط1، (بيروت/لبنان: دار الطليعة،2001،) ص ص، 06،07.

[10] المرجع نفسه، ص08.

[11] مُحَمَّد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، سلسلة: في التنوير الإسلامي32، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، (مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999)، ص06.

[12] كلود دوبار، أزمة الهويات تفسير تحوّل، ترجمة: رندة بعث، ط1، لبنان، 2008، ص21.

[13] المرجع نفسه، ص22.

[14] ديفيد إنغليز، جون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما نصير، مراجعة: فايز الصياغ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، (الدوحة/قطر، بيروت/لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013،) ص17.
[15] زيجمونتباومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رءوف عزت، سلسلة: الفقه الاستراتيجي4، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، (بيروت/لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص85.
[16] المرجع نفسه، ص86.
[17] عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، ط3، (دمشق/سوريا: دار الفكر، 2003،) ص199.
[18] وحيد بن بوعزيز، نزعةالتهجينفيالروايةالجزائرية،نموذج" ليالبستراسبورغ "لآسياجبار، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة2، الجزائر، المجلد2، العدد4، 2014، ص42.
[19] هومي.ك، بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، إشراف: جابر عصفور، العدد: 569، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004)، ص44.
[20] المرجع نفسه، ص44.
[21] جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت/لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004)، ص437.
[22] المرجع نفسه، ص465 ص466.
[23] أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة، تعريب: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط1، بيروت/لبنان: دار الفارابي، 1429ه/2008)، ص145.
[24] عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركية الإسلامية، حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، ط2، (دمشق/سوريا: دار الفكر، 2010)، ص ص، 141، 142.
[25] المرجع نفسه، ص145.
[26] فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، كلمة للنشر والتوزيع، أريانة/تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، ط1، 1438ه/2016م، ص205.

- **قائمة المراجع:**

- أرمان ماتلار، التنوع الثقافي والعولمة، تعريب: خليل أحمد خليل، دار الفارابي، ط1، بيروت/لبنان: دار الفارابي، 1429ه/2008.
- جيرار ليكلرك، العولمة الثقافية الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت/لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.
- ديفيد إنغليز، جون هيوسون، مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة، ترجمة: لما نصير، مراجعة: فايز الصياغ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، الدوحة/قطر، بيروت/لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.
- زيجمونتباومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رءوف عزت، سلسلة: الفقه الاستراتيجي4، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت/لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016.
- سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط3، اللاذقية/سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2012.
- سعيد، علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (عرض وتقديم وترجمة)، دار الكتاب اللبناني، ط1،بيروت/لبنان، سوشبريس، الدار البيضاء/المغرب، دار الكتاب اللبناني، 1405ه/1985م.
- عبد القادر بوزيدة، يوري لوتمان مدرسة "تارتو-موسكو" وسيميائية الثقافة والنظم الدالة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد: 35، العدد:3 "السيميائيات، يناير مارس 2007.
- عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء/المغرب، بيروت/لبنان: المركز الثقافي العربي، 1996.
- عبد الوهاب المسيري، الهوية والحركية الإسلامية، حوارات مع الدكتور عبد الوهاب المسيري، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، ط2، دمشق/سوريا: دار الفكر، 2010.
- عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، ط3،دمشق/سوريا: دار الفكر، 2003
- فتحي المسكيني، الهوية والزمان تأويلات فينومينولوجية لمسألة النحن، دار الطليعة، ط1، بيروت/لبنان: دار الطليعة،2001.
- فتحي المسكيني، الهجرة إلى الإنسانية، كلمة للنشر والتوزيع، أريانة/تونس، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، بيروت لبنان، ط1، 1438ه/2016م.
- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر/ لبنان: منشورات الاختلاف، 1431ه/2010م.
- كلود دوبار، أزمة الهويات تفسير تحوّل، ترجمة: رندة بعث، ط1، لبنان، 2008.
- مُحَمَّد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، سلسلة: في التنوير الإسلامي32، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999..

- هومي.ك، بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، إشراف: جابر عصفور، العدد: 569، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2004..
- وحيد بن بوعزيز، نزعة التهجين في الرواية الجزائرية، نموذج "ليالي ستراسبورغ" لآسيا جبار، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة2، الجزائر، المجلد2، العدد4، 2014.